

## صفحات من الذاكرة

# عندما جئتها قبل أكثر من نصف قرن سامي عصاصة: لم أتصور أن في الكويت بيوتا وشوارع

تقريباً، ولا أذكر أنني شاهدت آنذاك في الألفق القريب أو البعيد لا البحر ولا المدينة، وإنما لفت نظري وجود مضارب خيام متفرقة.

### التعيين مدرساً لموسيقى

وتحدث عصاصة عن أول عمل له في الكويت، فقال: كان لي قريب هنا ينتظرن ليصطحبني إلى مديرية التربية. هناك عرفوني باني عنت مدرساً للموسيقى في مدرسة قتيبة الواقعة بالقرب من ساحة الصفاة في الجهة الجنوبية لشارع فهد السالم، والتسمية نسبة إلى قتيبة بن مسلم من أشهر فرسان العرب والمسلمين، ومن كبار الفاتحين، وفتح أجزاء من آسيا، توفي ٧١٦م، وكان مدير المدرسة المرحوم خالد المسعود الفهيد الذي حصل بيئي وبينه عدة حالات تتراوح بين التوتر والرضا تعرضت لبعضها في كتابي «طرائف في حياة مغترب».

في مستهل لقائنا مع سامي محمد شفيق عصاصة قال: بعد حصولي على شهادة البكالوريا في سوريا قررت متابعة تحصيلي الجامعي في الولايات المتحدة أو في بريطانيا، فقررت العمل مصمماً على جمع المال الذي يمكنني من الانطلاق إلى رحلة الدراسة، ولكن كيف أجمع المال المطلوب إن كان الراتب المتوقع لأمثالي في دمشق لا يزيد على مائة ليرة في الشهر؟

في هذه الحالة عارض والدي السفر لكن تصميمي على الدراسة كان أقوى، وكنت سمعت كما سمع غيري أن العمل في الكويت يعود على المدرس براتب شهري يبلغ أضعاف ما يمكن الحصول عليه كمدرس في دمشق، لذلك سعيت وعملت للمجيء إلى الكويت، وعندما وصلت بالطائرة السورية في أوائل شهر أيلول من عام ١٩٥٥، أي قبل أكثر من نصف قرن، لم أشاهد من شبكات الطائرة سوى بحر من الرمال، وكنا في سوريا نتخيل الكويت صحراء، شبه قاحلة ينقصها كل شيء، لم تكن تتصور أن فيها بيوتا وشوارع، وإنما رمال وبيوت من الطين يضاف إليها الكثير من الخيام، وحتى بعد هبوطي من الطائرة لم يتغير الانطباع كثيراً، إذ طغى على ناظري مشهد الرمال الذي يحيط بكل شيء

■ اصطحبني قريبني إلى «التربية» وعينوني مدرساً لموسيقى

■ عملت أيضاً في تجارة الآلات الموسيقية لأضعاف دخلي

■ قترت على نفسي لأجمع المال فاشترت أرخص سرير بلا خزنة أو طاولة

أجرى الحوار:  
جاسم عباس



● بالفترة والعقال



● يمسح أرض الغرفة

■ الانغماس المفرط في التدين  
لا يأتي بالحل  
إنما بالاعتدال وليس بالعنف



● سامي محمد شفيق عصاصة

إني أذكر بناء المديرية فقد كان متواضعا، ولكنه يمتلك حيوية وحركة، ولم تكن هناك ارضية وإنما كنا نخرج من باب المديرية مباشرة إلى الرمال، وكنت عندما أخرج منها وأمشي نحو اليسار أجد معرضاً تجارياً متميزاً يحمل اسم «الشريعان» الذي كان لي مع صاحبه (خالد وفهد) شأن خلال العام الدراسي الذي قضيته في الكويت، وعلى بعد مائتي متر أو أكثر كان هناك معرض الجميل، في دور التوسعة والتجديد لكونه ممثلاً لشركة «جروينيك» للتلفزيونات، وكان لي مع صاحبه شأن تجاري فيما بعد، وبعدها تاتي ساحة الصفاة التي يتحدر منها شارع الجديد باتجاه السيف، ساحل البحر، وكان أهم شارع تجاري آنذاك الذي انتهى في نهاية الأربعينات.

### المضمون الصادق

وقال عصاصة: علي أن استعرض الناس الذين قابلناهم هناك في ذلك العهد في الخمسينات، لا شك أنهم يؤكّدون وجود بدائية لا نستطيع انكارها، ولكن هم لديهم رغبة والحاح غير عاديين لتحصيل العلم والمعرفة، والمفكرون كانوا يحذرون من الاستسلام إلى سراب حياة البهجة الزائلة وينبهون إلى أن ثروة البترول لن تدوم، ويطلبون نهضة حضارية علمية واقتصادية على أمتن أسس التطور، فكانت خلايا حية تضج حيوية ونشاطاً.

أضاف: فالكويت التي كنت أعرفها غابت تقريباً من الوجود، فالبدائية زالت وسيطر التطور والتقدم، والتحديث طال كل شيء، والرعي الذي عاصرته شارك بعضه في السياسة، وانجرف بعضه في تيار غربي غير منصف، وبينما الباقي منهم واعون مؤامرات الاستعمار الحديث.

### تجارب

وتحدث عن انطباعاته وتجاربه مع تلاميذ الكويت فقال: لو استفتينا التلاميذ الأشقياء الذين يتحدرون على كل شيء كنا نجد لدى التلاميذ الجدية وأن النسبة الأكبر منهم تشبه صغار الطير التواقة لالتهايم الغذاء بنهم فطري عجيب، وكان يهم بريدون غلب عبا، وأما تجارب أولياء الأمور مع متابعة أحوال أبنائهم فلم تكن كبيرة عديداً، ولكني ما زلت أذكر مشاركة الإمهات في السؤال عن أحوال أبنائهم كانت كبيرة نسبياً.

### بيتهوفن - بخيل

وتحدث سامي عصاصة عن بخله وهو لا يخجل من ذلك وعدم مشاركته الآخرين في التوفير فقال: ما أن وجدت في الكويت عام ١٩٥٥ لم يكن تسميني تجاوزاً «بيتهوفن زمني»، في بداية سكتي عند ابن عمي ظافر البرادي الذي كان في الكويت قبل بضع سنوات، اعتذرت عن النوم معهم لسبب: الأول هو غلاء اجرة الغرفة، والثاني أن ساكني الغرف يشتركون في الطعام، فكانوا يوظفون خادماً يجيد طهي الطعام ويقوم بتنظيف البيت، وكانت مشاركتي لهم في الطعام يسمنونها، ميز لا تأسسني، (ميز) كلمة اجنبية كانت شائعة في الكويت LEMASSE تعني قاعة طعام الموظفين، وكان راتبي ٨٠٠ روبية وإيجار الغرفة ٣٠٠ روبية ليس فيها من اللازم سوى مروحة كهربائية، وكانت الدار في منتصف شارع الجديد، وضوء الشمس لا يصل لغرفتنا، وفكرت في أنني لم أقصد الكويت إلا لتوفير أكبر مبلغ ممكن من المال لذلك كنت أقتر على نفسي.

فاشترت أرخص سرير من دون خزنة وطاولة، إن كانت خفيفة السفر تقوم بذلك الوظيفة، ولم أتناول في مطعم سوى وجبات الغداء.

واشترت دفتر كويونات فيه وجبات لشهر من المطاعم، وكنت أطلب شوربة وسلطة فقط وأحياناً الطبخ، ولم أترك ورائي كسرة خبز، وكان صاحب المطعم يكرهني لئلا يكتفي، ولعدم خروجي عن مضمون الكويونات قيد أنملة، وكنت أتناول طعام الإفطار في مدرسة المهني، فقد كانت مديرية التعليم في الكويت تنظم فطوراً لجميع التلاميذ في كل صباح، ولا أنكر أنني كنت أحشو معدني بالسندويشات الصغيرة لكي أخفف من مصروف الأكل خارج المدرسة، وأما وجبة الغداء فكانت شبه ثابتة في حياتي في الكويت وكانت عبارة عن رغيفين «ويراد» شاي صغير «البريق» مع مكسوسين شهينين مما زودتني أمي به في دمشق، وفي اليوم الثاني أكل بدلاً من المكسوسين رغيفين مع ١٥ حبة من الزيتون، ولا أنكر أنني زدت عيار الوجبة، وبعد مدة وفرت مبلغاً للدراسة الجامعية فصرت أشتري بعض الفاكهة بعد أن كانت محدودة من قائمة ساكولاتي، وأما الحلاق فطلب مني أربع روبيات ونصفاً من أجل شعيرات قليلة على رأسي فصعقت، وأصابني الذعر، إذ إنني في سوريا لا أنفق أكثر من ربع ليرة، ما هذا يا ربي؟ هذا هدر وإسراف، فطلبت منه أن يحلق شعري على الصفر «أي بالموسى، حتى لا أنهب إليه كل شهر، ومنذ هذه الحلاقة صرت البس الكحفية والغترزة والعقال، المهم هو أنني لم أنهب إلى الحلاق على مدى عدة شهور، وحررت نفسي من عبء دفع أربع روبيات ونصف الروبية في كل مرة.

### أعمال

وتحدث عصاصة عن أعمال قام بها إلى جانب عمله مدرساً، فقال: أثناء تجوالي في شوارع الكويت تعرفت على تاجر اسمه فيروز يبيع الأدوات الموسيقية، مثل الإغواد والأوتار ونوتات الموسيقى، وانفقت معه على أن أورد له هذه الأدوات من دمشق، وصرت أكسب ربحاً فنياً يزيد من حجم توفيرتي ويساعدني على بلوغ هدفي.

وسم لي فائق كحالة، وهو صاحب متجر الغالات والإقفال والمغناطيس ومسكات الأبواب، أن استعير اسمه التجاري لإرسال مختلف الشركات في أوروبا للقيام بصفقات تجارية باسمه، فحصلت على وكالات عدة لشركات عالمية متخصصة في الأدوات الموسيقية ومنها: وكالة شركة كافو GA-VEAU الفرنسية، وشركة هوفمان النمسوية لصنع البيانو، بالإضافة إلى شركة «باولو سويراني» الإيطالية لصنع الأوردونات، وجمعت من وراء ذلك ما يكاد يوازي دخلي من راتب المدرسة، وهذا هو بيت القصيد.

### الكويت وتأميم السوييس

قبل انتهاء العام الدراسي جاءت مذكرة من المديرية تسال عن يجب البقاء في الكويت لمدة شهرين إضافيين ليشراف على نشاط الطلاب، وأن

## ألقيت كلمة سوريا تأييداً لعبدالناصر في المباركية فحصلت مدهامة للاحتفال.. هريوني وخبأوني

وانحراف عن الطريق السوي فلم يعودوا يهتمون بالمدرسة من منطلق الشوق للمعرفة لأن أمور المدنية والحدادة تسعى للسيطرة على مساراتهم، هؤلاء يهتمون بالمدرسة من منطلق كونها واجباً، وعليهم النجاح للانتقال في صف إلى صف.

أما الثاني الأقل عدداً لكنه هو الذي يشكل العمود الفقري الصلب وكان المستقبل لهم، انهم طبقة من الشباب فتحت أعينهم وكشفت المطبات التي تؤدي إليها الحدادة المفرطة والعودة الخطيرة، وهم الأمل الواعد، إنني أؤكد على الشباب لأن المرأة إن أرادت قدرة على صنع الرجال.

وأضاف: وأحب أن أختتم هذه النقطة بملاحظة قد لا يستسيغها البعض: فإنا لا أرى الحل في الانغماس المفرط في تيار التدين الذي يبلغ حد التصيب، وإنما في الاعتدال في أسلوب الاقتناع بعيداً عن أي تطرف ومقترناً في استمرار ووضوح الرؤية إن الإسلام مستهدف لا شك، وإن الدفاع عن قيمه لا يتطلب اللجوء إلى العنف ولا ينجح التطرف.

كنت أخلق شعري «على الصفر» حتى لا أدفع كل مرة ٤ روبيات ونصف الروبية

صاحب المطعم كان يكرهني لشدة بخلي وعشاء اليوم التالي ١٥ حبة زيتون فقط

### العزف على الهواء

وأخيراً تحدث عما طلبه مدير المدرسة الأستاذ خالد مسعود



● يعزف على الأوردونات في الفجيجل